طرابلس في مطلع القرن التاسع عشر

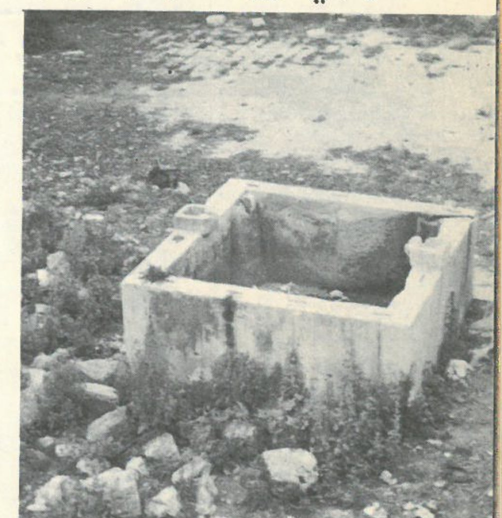
عصر مصطفى آغا بربر

ما زالت شخصية بربر آغا تحاط بالغموض . وبالرغم من تسليط الاضواء مؤخرا على هذه الشخصية ، فان التعرف الى شخص هذا الوالي والظروف التي اتت به واحاطت بولايته لا تزال مجهولة .

والاسباب في ذلك متعددة . لان سيرة بربر الاسطورية تسيطر على سيرته الحقيقية ، ولان التاريخ الوهمي يسيطر عادة على التاريخ الواقعي ، ولان الباحثين لم يعطوا هذه الشخصية وظروفها الحق من الدراسة . ولاننا كما نجهل تاريخ بربر آغا ، نجهل سائر وقائع تاريخنا ...

بين الوهم والواقع

لا ريب فان بربر كان شخصية قادرة ، ولولا قدرته لما تمكن من البقاء في منصبه مدة سنوات عديدة في ظروف متقلبة ومتغيرة .



بركة السباع .. وسط ديوان بربر

اما موقفه من المراة فلم يكن موقفا استثنائيا في عصره ، ولم يكن بذلك خارجا عن المألوف والمتبع من ابناء زمانه . اما دهاؤه فلا بد انه يتناسب في قوته مع دهاء الذين استطاعوا عزله اكثر من مرة . وبالنسبة لقوته فانها لم تكن كبيرة الى درجة خففت عنه وقع الهزائم مرات متعددة .

وبالرغم من ان الاوهام سيطرت على الوقائع حتى الان ، فلم يعد من الممكن العثور على شخصيته الحقيقية في هذا الخضم الواسع من الشائعات والتأويلات .. بالرغم من ذلك ، يمكن القول بان بربر آغا كان محيطا ومدركا لتقلبات السياسة وموازين القوى في عصره ، لهذا تمكن من ان يقيم التحالفات المناسبة محليا ، وعلى صعيد المنطقة ايضا ، اي داخل الدولة العثمانية التي كان واليا من طرفها ومثبتا من لدنها ، حتى عام ١٨٢٠ .

اما شهرة بربر فليست عائدة بالضرورة وبشكل نهائي الى طباعه وما اشتهر عنه من عادات قاسية ابان حكمه ، بقدر ما هي عائدة الى الظروف التي حكم خلالها ، وهي ظروف تحول وزمان تغير في سياسة الدول والولاة والامراء والسلاطين .. وتعود هذه الشهرة ايضا الى المدة المديدة التي بقي فيها في منصب الوالي ، في الوقت الذي كانت فيه ولاية طرابلس تمتد من اللاذقية شمالا الى جونيه جنوبا .. فقد بقي بربر في منصبه كحاكم لطرابلس ما يقرب من ٣٥ سنة ، كانت مليئة بالاحداث الجسام والتحولات ، مما اضفى على شخصية بربر المزيد من الخيال ..

عصر بربر آغا

عاش بربر ما يزيد على الستة والستين عاما في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر والثلث الاول من القرن التاسع عشر (١٧٦٧ – ١٨٣٥) . وحين تولى حكم طرابلس من جانب الجزار عام ١٧٩٨ كان في الثلاثين من العمر تقريبا ، وهو عمر فتي ، فلا بد ان حياته من قبل كانت حافلة بالاتصالات والشجاعة حتى يتسنى له تسلم هذا المنصب .

وقد تناسب ارتقاء بربر الى حكم الولاية في نفس السنة التي جاء فيها نابليون بونابرت الى غزو مصر ، وكان من آثار غزوه وحملته ما كان من آثار جسام على مستقبل الشرق بما في ذلك بربر نفسه . واضافة الى ذلك ، فقد كان السلطان في القسطنطينية ، وسلطان والي طرابلس ايضا هو سليم الثالث (١٧٨٩–١٨٠٧) الذي افتتح في دولته عصر الاصلاح والانفتاح على اوروبا .

وبالاضافة الى هذين العملاقين، اللذين ارادا ان يقربا بين الشرق والغرب ، لان نابليون اراد ان ينقل الى مصر تجربة بلاده ولان سليم الثالث اراد ان ينقل الى بلاده تجربة اوروبا ، بالاضافة اليهما ، كان هناك احمد باشا الجزار والي عكا العنيد الذي حامى عن اسوار عكا في وجه الفاتح الفرنسي ، وكان هناك ايضا الامير بشير الشهابي ، الحاد الطباع ، والصبور في آن معا .

في عصر كل هؤلاء جاء بربر الى الحكم والولاية ، عصر الاقوياء الذين يفرضون التغييرات الكبيرة والخطيرة على بلاد الشرق ، لان سنة صعود بربر الى الحكم كانت سنة حاسمة فعلا في تاريخ علاقة الشرق بالغرب ، او علاقة الدولة العثمانية باوروبا . وقد نضيف تعقيدا جديدا الى صورة الوضع في المنطقة اذا قلنا بان الحركة الوهابية في ذات الفترة وفي نفس الوقت كانت قد سيطرت على الجزيرة العربية وصارت تهدد ولايات السلطنة العثمانية وخصوصا ولاية بغداد وولاية دمشق ، مما عطل موسم الحج ايضا ، فاضعف ذلك من نفوذ والي الشام الذي هو في نفس الوقت أمير الحج ...

فأي اضطراب طرأ على صورة الوضع في المنطقة ، وطرابلس في جملته ، هذا الاضطراب الذي اخل باستقرار عرفته المنطقة خلال ثلاثة قرون مضت .

حياة بربر

ولد مصطفى آغا بربر على وجه محقق حوالي عام ١١٨٠هـ (١٧٦٧م) . اما والده فهو حسن بربر زاده وهو من اسرة طرابلسية تسمى (القرق) .

ويبدو ان والده قد توفي وتركه في عمر مبكر مع شقيقه محمد . ويروى بشكل غير مدقق ، من الروايات الشفهية ، ان والدته قد نقلت مصطفى وشقيقه الى « برسا » في الكورة لتعمل هناك . كما ان الروايات الشفهية والمكتوبة تقول ايضا بان مصطفى بربر،قد عمل في قرية « ددة » في الكورة في خدمة علي الايوبي ، وخدم ايضا في الضنية عند احد مشايخ آل رعد .

واذا كانت الروايات المتعلقة بصباه غير مؤكدة بشكل نهائي ، فمن المرجح ان مصطفى بربر قد اتصل بالامير يوسف الشهابي في حوالي العشرين من عمره حتى عام ١٧٨٨ حيث عاد الى طرابلس وعمل في صفوف « الانكشارية » ، ثم قاد مجموعة منهم وذهب الى عكا ليخدم احمد باشا الجزار . ويبدو ان الجزار هو الذي سانده ليصبح متسلما لطرابلس بعد طرد نفوذ عبد الله باشا العظم والي الشام منها ، وسيطر على قلعتها وقد تم ذلك بين عام ١٧٩٨ و ١٨٠٠م اي في مطلع القرن التاسع عشر .

وبقي بربر في منصبه ما يزيد على الثلاثين عاما ، لكن هذه المدة لم تكن متواصلة .

فالفترة الاولى امتدت حتى سنة ١٨٠٨ وكان خلالها على علاقة حسنة بالجزار المتوفي ١٨٠٤م وحاصلا على رضى الدولة العثمانية وكانت تحت حكم السلطان سليم الثالث ، المقتول عام ١٨٠٨ . وخلال هذه الفترة كان ثابتا في ولايته باسطا سلطته على حدود الولاية الممتدة حتى جونيه جنوبا واللاذقية شمالا . وقام بحملات تأديبية ، كما كان صديقا للامير بشير الشهابي ، فوجه بربر ولاية بلاد جبيل الى شقيق بشير الامير حسن شهاب .

وبالرغم من علاقاته الحسنة التي اقامها مع الحكام المجاورين فقد كان بربر على خصام مع علي بك الاسعد المقاطع في عكار ، الذي سعى لدى والي الشام الجديد كنج يوسف باشا لازاحة بربر . فطلب اليه الوالي ان يسلم الولاية والقلعة ، فرفض بربر تسليم القلعة ، فحاصرها والي دمشق كنج يوسف ومعه آل الاسعد من عكار ، فطال الحصار وهاجر اهالي المدينة تحت وطأته . ولم يتمكنوا من اخذ بربر عسكريا ، فتم توسط من سليمان باشا والي عكا .. الذي توسط لاخراج بربر سالما وابحر الى صيدا ومن بعدها الى عكا . اما طرابلس فقد تسلمها من بعده علي بك الاسعد .

عودة بربر الى طرابلس

بقي بربر لدى والي عكا ما يقرب من السنتين ، لكن والي دمشق كنج يوسف الذي خلع بربر لم يحظ برضى الدولة العثمانية الدائم ، فطلبت من والي عكا ان يزيحه ، فتم الامر ، ووجه سليمان باشا والي عكا بربرا لتسلم طرابلس عام ١٨١٠ .

وعاد بربر ليثبت نفوذه من جديد ، فجرد الحملات شمالا واحكم قبضته على القلعة .

ولا تذكر التواريخ شيئا هاما عن هذه الفترة سوى بعض ما قام به من اعمال ادارية ووقفية .. ومما يذكر ان بربرا قد جر المياه الى جامع طينال عام ١٨١٣ واصلح غفه .

كذلك وقف بربر في ذات السنة في وجه القناصل الاجانب الذين كانوا استحصلوا على رخصة من السلطان تسمح لهم باستيراد



محمد علي باشا في منظرته بدار الصناعة بالاسكندرية



مآذنة الجامع في قلعة ايعال « قلعة بربر »

ديوان الضيوف في القلعة

الخمور فمنعهم بربر من ذلك .

كذلك قام بحملة عسكرية شمالا عام ١٨١٥ واغار على قلعة القدموس عام ١٨١٧ .

وفي عام ١٨١٨ توفي سليمان باشا والي عكا وحامي بربر وجاء بعده عبد الله باشا الذي اقام معه علاقات حسنة خصم بربر الدائم علي بك الاسعد .. فعزل بربر عن متسلمية طرابلس عام ١٨٢٠ وهي المرة الثانية التي يعزل فيها عن منصبه فاقام في قرية ايعال حيث تقوم قلعته . ولما علم بربر ان الاسعد يريد القضاء عليه نهائيا فر من ايعال واقام في « اميون » برعاية بشير الشهابي الذي تمكن ان يسعى لدى والي عكا لاعادة بربر الى منصبه ، فاعيد الى منصبه بعد سنة من العزل ، واستعاد قلعته .

الولاية الثالثة

هذه المرة الثالثة التي يتسلم فيها بربر طرابلس ، لكن متسلميته لطرابلس لن يطول امدها هذه المرة اذ ستسقط هيبته بسقوط حاميه عبد الله باشا فيحاصر في قلعته .

وخلال غياب بربر عن طرابلس تسلمها بالتعاقب : شديد بك الاسعد وحسين باشا والحاج احمد وحسين بك العظم وقامت ثورة قادها الشيخ علي الدنون من باب التبانة على جيش الاسعد لكن الثورة انكسرت وانتقم الوالي من الاهالي .

اما بربر فقد قضى نفيه متنقلا بين بيروت والشويفات في حمى الامير بشير وسيشارك في معارك الشهابي وحروبه اما الدولة العثمانية فستطلبه الى الاستانة ، فادرك بربر الخطر فهرب الى القاهرة عام ١٨٢٦ حيث قامت من قبل مراسلات بينه وبين والي مصر محمد علي باشا . وفي القاهرة خصص له الباشا محمد علي منزلا

ورانبا ، فاقام هناك حتى سنة ١٨٣١ حيث عاد متسلما الى طرابلس مرة رابعة .

الولاية الرابعة

لكن ولاية بربر الرابعة لطرابلس جاءت هذه المرة مدعومة من الحكم المصري ، لان بربرا عاد الى مدينته مع القوات المصرية بقيادة ابرهيم باشا الذي جاء الى بلاد الشام وضمها الى مصر ووصل بجيوشه الى مقربة من القسطنطينية ...

وعند عودة بربر الى طرابلس عام ١٨٣١ عين اولا باول الشيخ ابراهيم السندروسي قاضيا شرعيا لمحكمة طرابلس .

واجرى تلزيم الاقطاعات على الوجه التالي :

١ – مقاطعتا الجومة والدريب الى محمود بك الشديد المرعبي .

٢ – مقاطعة عرب الجحيش لعمر جلبي القدموسي .

٣ – مقاطعة صافيتا لخضر المحفوض .

٤ – مقاطعة الشعرا لناصيف آغا الحسن .

٥ – مقاطعة القيطع لاسعد بك الخضر .

٦ – مقاطعة الضنية للشيخ خضر رعد .

كما عمل على تحصين قلعته وتعاون صادقا مع ابراهيم باشا وساهم في رد الحملة العثمانية وقدم خدمات جلى للحملة المصرية ... لكن خلافا سيقع بين ابراهيم باشا وبين بربر وسبب الخلاف

بربر

ليس واضحا وان كان يرجح انه يعود لرفض بربر لامر ابراهيم باشا بتلزيم الخمارات ورفضه لوجود خمارات في طرابلس (!) فخلعه من منصبه عام ١٨٣٤ ، وعزل بذلك بربر من منصبه للمرة الاخيرة فلزم داره في ايعال ، وبعد ذلك بقليل قامت فتنة في طرابلس ضد المصريين ، ليس معروفا اذا كان لبربر ضلعا فيها ، لكن الفتنة أخمدت ، واعتقل زعماؤها ومن بينهم : الحاج عبد الله علم الدين ، الحاج شاكر الطرجي ، شاكر عدره ، ابراهيم افندي السندروسي ، مصطفى ملك ، مصطفى الادهمي ، محمد افندي الذوق ، خليل الثمين امين الفتوى، اسماعيل النقيب ...

ولم يلبث وقت طويل حتى توفي بربر في ايعال في نيسان ١٩٣٥ .

صفات بربر

بعض الصفات التي اتصفت بها شخصية بربر تشبه الى حد بعيد صفات الامير بشير الشهابي ، وليس مستبعدا ان يقع نوع من التشابه بين الشخصيتين المتزامنتين خصوصا ان العلاقة والصداقة بينهما قد استمرتا حتى وفاة بربر . وقد انصف بربر بالعدل والقسوة والشدة والتمسك باوامر الدين وكرهه للمراة او قسوته عليها ، وهي صفات مشتركة بين حكام زمانه وعصره . وليس مستبعدا ان تكون بعض المبالغة قد وقعت في وصفه . وخصوصا في موقفه من المراة ، هذا الموقف الذي يستدعي لمواقف اشد قسوة تجاهها في الثقافة الشعبية المحلية .

وعصره

اما عصر بربر ، كما حاولنا ان نلخص ، فقد كان عصر تقلب سياسي ، وعصر تحولات اذ برزت القوة المصرية المهددة للدولة العثمانية ، وفي نفس الفترة تمت الاتصالات والانفتاح على الغرب .

ويكون بربر الذي حكم طرابلس في الثلث الاول من القرن التاسع عشر وعلى فترات متقطعة بين (١٨٠٠ و ١٨٣٤) قد حكمها في فترة دخولها العصور الحديثة ...

وانه لامر لا يلخو من الطرافة ان تدخل طرابلس العصر الحديث من باب مصطفى آغا بربر القرق .